أولاّ موندينغر*

جمال طاغٍ في مكان بائس: القصة غير المحكية لقرية يالو**

يالو وعمواس وبيت نوبا قرى دمرها الجيش الإسرائيلي بعد احتلاله الضفة الغربية في ٥ حزيران/يونيو ١٩٦٧، لتنضم إلى نحو ٥٠٠ بلدة وقرية وخربة هُجّرت ودُمرت في سنة ١٩٤٨، وبعضها مُحي أثره. اليوم، بعض أثر من هذه القرى التي كان يعيش فيها قرابة ٩٠٠٠ شخص، يقع ضمن حديقة "أيالون ـ كندا بارك" وهي محمية طبيعية أنشأها الصندوق القومي اليهودي، على أراضٍ فلسطينية، بهدف محوها من الذاكرة.

أولاّ موندينغر، الطالبة الألمانية في العلوم الاجتماعية، زارت الحديقة ووقفت عند ما تبقّى من أثر ليالو، وعنها كتبت هذه المقالة.

تمنحني حيازة دفتر أحمر صغير ـ يُسمى أحياناً أيضاً جواز سفر ألمانياً ـ امتيازات أكثر ممّا يحصل عليه معظم الناس في فلسطين. وبين هذه الامتيازات أنني أمتلك الحرية في أن أقرر إلى أين أذهب. ومن ذلك على سبيل المثال: زيارة يالو، تلك القرية الفلسطينية التي شُطبت من الوجود قبل نحو خمسين عاماً.

يوم في يالو

خطرت لي فكرة زيارة يالو في أواخر صيف سنة ٢٠١٦. تذكّرتُ صديقي رمزي من رام الله، وهو واحد من فلسطينيين كُثر ولدوا في وقت متأخر جداً، فلم ينعموا بطيب العيش على الأرض التي ينتمون إليها. نشأ رمزي في الأردن، لكن أصول عائلته تعود إلى يالو.

بدأت رحلتي في صباح يوم سبت. يالو قريبة من رام الله، إذ يفصل بينهما أقل من عشرين كيلومتراً. ولكن بما أن الجدران والحواجز العسكرية جعلت السفر مباشرة إليها أمراً صعباً، كان عليّ أن أسلك طريقاً التفافياً عبر القدس.

* طالبة في قسم العلوم الاجتماعية في جامعة إرفورت في ألمانيا، أنهت، في صيف سنة ٢٠١٦، فترة تدريب لدى معهد دراسات القدس.

** المصدر: Ulla Mundinger, "Walking on Ruins: The Untold Story of Yalu", *Jerusalem Quarterly*, Issue 69 (Spring 2017), pp. 22-26.

ترجمة: صفاء كنج.

ليالو تاريخ طويل حافل. فهذه القرية الفلسطينية التي تقع على بعد نحو ١٣ كيلومتراً إلى الجنوب الشرقي من الرملة، في منطقة اللطرون الخصبة والغنية بالمياه، ارتبط اسمها بقرية عجلون القديمة التي ورد ذكرها في التوراة، وعايشت على مر التاريخ حكم الرومان والحشمونيين والبيزنطيين والعثمانيين.[١] وفي سنة ١٩٤٨، باتت منطقة اللطرون في معظمها ـ مع الضفة الغربية اليوم ـ تحت الإدارة الأردنية، وظل ما تبقّى منها منطقة عازلة. وقد حددت خطوط الهدنة الأردنية ـ الإسرائيلية في سنة ١٩٤٩ منطقة اللطرون بوضوح ضمن الأراضي الفلسطينية المحتلة اليوم.

هُدمت يالو في سنة ١٩٦٧. ففي السادس من حزيران/يونيو من تلك السنة، صدرت الأوامر عبر مكبرات الصوت إلى سكانها الذين كان يقارب عددهم ١٧٠٠ شخص بمغادرة القرية تحت طائلة تعريض حياتهم لخطر شديد.[٢] اختار كبار السن البقاء في القرية أو تُركوا فيها،[٣] بينما حمل الباقون بعض الحاجيات وهربوا، ربما من دون أن يدركوا أنها المرة الأخيرة التي يرون قريتهم فيها. أُعلنت المنطقة منطقة عسكرية مغلقة، وبدأت الجرافات تهدم البيوت.

شهدت قرى عمواس وبيت نوبا مصيراً مماثلاً. واليوم، باتت هذه القرى التي كان يعيش فيها نحو ٩٠٠٠ شخص، مغطاة بحديقة "أيالون ـ كندا بارك"، وهي محمية طبيعية أنشأها الصندوق القومي اليهودي.[٤] في آذار/مارس ١٩٧٦، وجّه عدد من أهالي يالو وعمواس وبيت نوبا رسالة رسمية إلى رئيس حكومة إسرائيل الأسبق يتسحاق رابين طلبوا فيها تطبيق "حقهم الإنساني في العودة... من دون المطالبة بتعويض من الدولة"، لكن رسالتهم لم تلقَ جواباً.[٥]

دخول الحديقة

فوجئت بأن طلب سيارة أجرة تقلّني من القدس إلى حديقة كندا لم يكن بالأمر المريح. فالسائق، وهو فلسطيني، لم تَرُقْ له فكرتي في التوجه إلى هناك، كما أن الكيس المملوء بالطعام في يدي لم يسعفني لتصحيح صورة كوني مجرد سائحة تريد الاستمتاع بطبيعة الحديقة الجميلة. على أي حال، "الغاية تبرر الوسيلة"، هكذا فكرتُ، وركبتُ السيارة.

انتصَبت عند مدخل الحديقة صخرة كبيرة كُتب عليها بالعبرية والعربية "أيالون ـ حديقة كندا"، وبالقرب منها علم إسرائيل ولافتة كبيرة للصندوق القومي اليهودي. مشيت إلى مكتب الاستعلامات على بعد بضعة أمتار، فرأيت اسم الحديقة مكتوباً من جديد بأحرف كبيرة لكن الفرق هذه المرة أن الترجمة العربية لم تعد متوفرة. شعرت بالحزن لأن الأمر لم يفاجئني. المدخل هو في شمالي غربي الحديقة، أمّا وجهتي، أي ما تبقّى من يالو، فتقع في الجزء الشمالي الشرقي منها، والمشار إليه بصفته "موقعاً تاريخياً" مع رسم كرتوني لعمود أثري. عاينت أقصر طريق بين متاهة من ممرات مختلفة الألوان، وشرعت في السير عبر الحديقة على طرقات مُغبرّة، بين أشجار اللوز والزيتون المنتشرة في كل الأرجاء. صادفتني أحياناً بضع شجيرات صبّار وأشجار سرو. سمعت أصوات غناء الجداجد. لم ألتقِ بأحد، ربما لأنه كان يوم سبت. كانت الحرارة تفوق تقريباً طاقتي على التحمل، واختلط الغبار بأنفاسي. بعد ساعة، وددت لو أنني سألت العائلة التي كانت تشوي اللحم بالقرب من المدخل أن توصلني. وبعد ساعة ونصف الساعة، أيقنت أنني تُهت ـ فبدلاً من السير في الاتجاه الشمالي الشرقي [ورد في النص الإنجليزي أن الاتجاه هو الشمالي الغربي، لكن موقع القرية هو في الشمال الشرقي من الحديقة، فاقتضى التصويب]، وجدت نفسي في جنوبي الحديقة. كان الوقت بعد الظهر، والحرارة الشديدة تعاند على البقاء، كعناد طفل ضخم في الملعب يرفض ترك الأرجوحة للآخرين.

في سنة ١٩٧٣، أطلق برنارد بلومفيلد،

الرئيس السابق للصندوق القومي اليهودي في كندا، حملة لجمع التبرعات لإنشاء الحديقة الترفيهية المخطط لها، والـ ١٥ مليون دولار التي جُمعت كانت معفاة من الضريبة نظراً إلى أن المؤسسة تُعدّ جمعية خيرية.[٦] في سنة ١٩٧٥، افتتح رئيس حكومة كندا الأسبق جون دايفنبيكر حديقة أيالون ـ كندا بارك بنفسه،[٧] وهي تمتد على آلاف الدونمات،[٨] وتغطي قرى يالو وعمواس ودير أيوب المهدمة. لقد جعلت المساحات الكثيرة المخصصة للنزهة والملاعب وممرات المشي والينابيع والمناظر الخلابة من الحديقة وُجهة يقصدها السياح. وتشير اللافتات التعريفية داخل الحديقة إلى مختلف الحقب التاريخية للمنطقة، لكنها لا تأتي على ذكر تاريخها الفلسطيني.

أنقاض يالو

بعد المشي لفترة طويلة بدا لي أنها لن تنتهي، وصلتُ إلى يالو. طغى عليّ شعور مريع، لكنني كدت أقفز من الفرح لمرأى أنقاض القرية المُهدمة. سرتُ في أرجائها على غير هدى أتنقل بين الحجارة والأنقاض واحدة واحدة. لم تسعفني النسخة المصورة غير الواضحة للخريطة العبرية في تحديد وجهتي. رأيت في البعيد بعض الأشخاص، لكني لم أشعر بالرغبة في الحديث إليهم. لم يتبقّ كثير من يالو: بضعة حجارة على الأرض، بعضها لا يزال متصلاً بجدران أو أجزاء من منازل. لقد نُقل معظم حجارتها، وأخذت الطبيعة مجراها فطغت على المكان. وقفت بضع شجيرات من الصبار وأشجار اللوز متباهية بأزهارها، شاهدة بصمت على الحياة التي ضجّ بها هذا المكان فيما مضى.

لاحظت كهفاً ضخماً ذا واجهة مقوسة في الجانب الآخر من الوادي، وبالقرب منه مربع أسود صغير تحيط به حجارة رُتبت بطريقة منظمة. أدركت أنه منزل، فسارعت الخطى في اتجاهه. لقد بُني المنزل تماماً على خاصرة التلة، ولا بد من أن جدرانه المنحوتة في الصخر هي التي أنقذته من مخالب الجرافات. دخلتُه، فأطبق ظلام مباغت سرق من عينيّ النظر لبضع ثوانٍ. فهمتُ ممّا أمكنني رؤيته أنني في غرفة عمقها بين خمسة وسبعة أمتار. كانت الأرضية مجبولة من الرمل والحجارة ولاحظت وجود حفر كبيرة فيها. ما الذي كان فيها؟ مَن هم أصحاب هذا المنزل الذي أقف فيه؟ سيطر عليّ شعور حزين بانعدام اليقين، فحل الظلام مجدداً في الغرفة. خرجتُ. كاد المشهد الغني بالألوان للوهلة الأولى يُغرر بي؛ إنه جمال طاغ في مثل هذا المكان البائس.

في أثناء نزولي، مررت بالقرب من الكهف الضخم المقوّس الذي انتصبت أمامه شجيرات لا تُحصى من الصبار كأنها تحرسه. وبينما كنت أتمشى بين الأنقاض، جالت في ذهني أفكار لا حصر لها. فهذا المكان يجعل المرء يطلق العنان لخياله. حاولت أن أتصور الحياة التي عاشها أصحاب المكان. أين تجمعوا في المناسبات المهمة، وهل كانت حياتهم سعيدة؟ كيف كان رمزي سيعيش هنا لو لم تُرغم عائلته على الهجرة؟

تسلقت أعلى تلة فأذهلتني روعة المنظر. تلال خضراء، وشجيرات صبار وأشجار نخيل على مد النظر، حتى إنني شاهدت بحيرة في الأسفل. أضفى غروب الشمس بريقاً على الألوان المحيطة فشعرت بأنني بعيدة عن الحضارة.[٩] عثرت على برج حجري صغير مصنوع من حجارة كبيرة في الأسفل ومن الحصى في الأعلى. إنها "إشارة إلى الحضارة"، كما قيل لي. وفي هذه الحالة، لم أكن أكيدة إن كان الأمر يتعلق بشخص يمعن التفكير في الأمور أم يعاني جهلاً مطبقاً. نظرت إلى المستعمرات المحيطة بالمنطقة. شُيدت بيوت كبيرة وحتى مصنع هناك. أتساءل ما الذي يدور في أذهان هؤلاء الناس. وسرعان ما خطرت في بالي فكرة ساذجة: كم سيكون من السهل أن أخرج من الحديقة هنا وأذهب مباشرة إلى رام الله! لكني

تذكرت عندها الحدود والحواجز العسكرية. تنهدت وشرعت أسير في اتجاه مدخل الحديقة.

مغادرة يالو

يغلفني شعور بالارتباك. لقد شهدتُ على حياة اختفت ومنازل تحولت إلى أنقاض أو حتى أقل من ذلك. ما هو انطباعي عن الساعات القليلة الماضية؟ لماذا أتيتُ إلى هنا؟ ما الذي يجب أن أشعر به وأنا أسير فوق أنقاض قرية صديقي؟ شعرت بأن عدداً أكبر من الأسئلة تكوّن لديّ الآن.

في طريقي لمغادرة الحديقة مررت بمجموعة من الأشخاص يجلسون على المقاعد ويدخنون النرجيلة. جاؤوا جميعهم من الرملة. عرفت ذلك فيما بعد. سألت عن الحافلة المتجهة إلى القدس، لكن بعد قليل وجدت مَن يعرض عليّ إيصالي إلى باب العمود في القدس، وطبعاً تحدثنا.

"يالو؟ يالو لم تعد موجودة"، قال مهدي ساخراً بإيجاز. ساد صمت. أتذكر أنني قلت إن "نسيان الماضي" يساعد، لكن ماذا لو أن القدر لم يترك أي ماضٍ ليُنسى؟

حديقة واحدة وقصتان

يقدم الصندوق القومي اليهودي نفسه في صفحته الإلكترونية على أنه "رائد عالمي في مجال البيئة (...) يعمل على تخضير الصحراء عبر زرع ملايين الأشجار (و) بناء آلاف الحدائق." فضلاً عن ذلك، يدّعي الصندوق أنه يحرص على "صيانة المواقع التاريخية في مختلف أرجاء إسرائيل عبر ضمان توثيق القصص المتعلقة بكل موقع تاريخي بالشكل الملائم وإعادة روايتها على مدى أجيال مقبلة."[١٠] لكن هذا ليس سوى نصف الحقيقة. عندما توجّه الصندوق القومي اليهودي إلى فاعلي الخير الكنديين المحتملين في سنة ١٩٨٤، ادعى أن تبرعاتهم ستساهم في "الأشغال الأساسية لاستصلاح الأراضي، وشق الطرق، والإعداد للبنى التحية، وزراعة الأشجار."[١١] لكن الصندوق لم يأتِ على ذكر أن حديقة أيالون ـ بارك كندا ستُبنى فوق قرى شُرد أهلها بالقوة، وأنها موجودة في الأراضي الفلسطينية المحتلة اليوم، الأمر الذي يجعل الحديقة غير شرعية في نظر القانون الدولي. عند السير على الطريق السريع "١" من القدس إلى حديقة أيالون ـ كندا بارك، لا يوجد أي لافتة تشير إلى تجاوز الخط الأخضر.[١٢] ولا يزال الصندوق القومي اليهودي حتى اليوم، يُهمل ذكر أي ماضٍ فلسطيني على أراضي الحديقة،[١٣] وموقعه الإلكتروني لا يشير إلاّ إلى "عدة معارك طاحنة... خلال حرب الاستقلال، بين جيش الدفاع الإسرائيلي والفيلق الأردني."[١٤]

تذكّر الماضي، لكن أي ماض؟

يبدو أن الصندوق القومي اليهودي يقوم بإخفاء وإزالة أي بقايا تدل على الوجود الفلسطيني في منطقة اللطرون حيث تمارس آلاف الأشجار المزروعة عملية "غسل أخضر" للماضي، والمؤرخ الإسرائيلي إيلان بابِهْ، مؤلف كتاب "التطهير العرقي لفلسطين"، يصنف هذا العمل ضمن ما يسمى عملية "إبادة الذاكرة".[١٥] ففي رأيه، لم يكن احتلال القرى الفلسطينية وتطهيرها عرقياً وتدميرها كافياً، لا بل إن الصندوق القومي اليهودي يسعى لمحو ماضي المنطقة الفلسطيني وحاضرها من الوعي الجماعي. ولا بد من أن وليد الخالدي، أحد مؤسسي مؤسسة الدراسات الفلسطينية كان محقاً في قوله، إنه "من الأمور الشائعة والمبتذلة في التاريخ المدوّن أن المنتصرين في الحرب يمضون عادة بالغنيمة وبرواياتهم هم للأحداث."[١٦]

بحلول حزيران/يونيو ٢٠١٧، تكون قد مرت خمسون عاماً على محو يالو من الوجود، لكن لهذه القرية الفلسطينية قصة طويلة تحكيها، قصة التحول القسري والنسيان، قصة وضع

طبقات سميكة من حاضر مجزأ فوق ما تبقّى من أشلاء الماضي. فمنذ تهجيرها في سنة ١٩٦٧ وإقامة حديقة أيالون ـ كندا بارك على أنقاضها، يخيم صمت مخادع فوق القرية الفلسطينية، على أمل بأن تروي يالو يوماً حكايتها ـ وتزيل نوافذ الصمت التي تحيط بأنقاضها. ■

المصادر

١ John Reynolds, *Where Villages Stood: Israel's Continuing Violations of International Law in Occupied Latroun, 1967-2007* (Ralmallah: Al-Haq, 2007), www.academia.edu/12909263/Where_Villages_Stood_Occupied_Latroun_1967-2007

٢ فيلم "ذاكرة الصبار: قصة ثلاث قرى فلسطينية،"، مؤسسة الحق، ٢٣ حزيران/يونيو ٢٠١٠، vimeo.com/12801869

٣ لم يتمكن ١٨ شخصاً من كبار السن من أهل القرية من مغادرتها. انظر:
"Letter from the Latroun Villagers to the Canadian Museum of Civilisation", Al-Haq, 12 October 2010, www.alhaq.org/advocacy/topics/settlements-and-settler-violence/197-letter-from-the-latroun-villagers-to-the-canadian-museum-of-civilisation

٤ أقيمت حديقة "أيالون ـ كندا بارك" على أراضي يالو وعمواس ودير أيوب التي هُجِّر أهلها في سنة ١٩٤٨. ومنذ سنة ١٩٧٠، بُنيت فوق قرية بيت نوبا مستعمرة "ميفو حورون" التي يعيش فيها نحو ٢٤٠٠ مستوطن. انظر قرار السياسات الصادر في سنة ٢٠١٦ عن حزب الخضر (Green Party) الكندي، بعنوان: إلغاء صفة المؤسسة الخيرية عن الصندوق القومي اليهودي في كندا. راجع:
Revoking the Charitable Status of the Jewish National Fund Canada (JNF), www.greenparty.ca/en/convention-2016/voting/resolutions/g16-p010

٥ Marianne Hirsch and Nancy K. Miller, *Rites of Return: Diaspora Poetics and the Politics of Memory* (New York: Columbia University Press, 2011), pp. 181-182.

٦ Reynolds, op.cit.

٧ Corey Levine, "Israel: It is Time to Renounce 'Canada Park' ", *Canadian Charger*, 31 March 2011, www.thecanadiancharger.com/page.php?id=5&a=848

٨ "The Ghost of the Latroun Area: 46 Years of Occupation", *al-Haq*, 13 June 2013, www.alhaq.org/documentation/weeklyfocuses/713-the-ghost-of-the-latroun-area-46-years-of-occupation

٩ قد يكون ذلك سببه أيضاً ملابسي المُغبّرة وبشرتي التي لوحتها الشمس وعطشي وركبتي التي جرحتها وأنا أتسلق الصخور، وكذلك من الأشواك التي علقت بي عندما مشيت عن غير قصد داخل بستان من شجيرات الصبار.

١٠ Jewish National Fund, "About JNF", n.d., www.jnf.org/about-jnf/

١١ Reynolds, op.cit.

١٢ Eitan Bronstein, "Restless Park: On the Latrun Villages and Zochrot", Zochrot, 2014, zochrot.org/en/article/51029

١٣ Al-Haq, "What is 'Canada Park'?" 2008, www.alhaq.org/images/stories/PDFz/what-is-canada-park.pdf

١٤ Jewish National Fund, "Ayalon Canada Park–Biblical & Modern Israel," n.d., www.kkl-jnf.org/tourism-and-recreation/forests-and-parks/ayalon-canada-park.aspx

١٥ Ilan Pappe, *The Ethnic Cleansing of Palestine* (Oxford: Oneworld, 2007).

١٦ مقتبس في: Ibid., p. 234.

والنص العربي المستخدم هنا، جرى اقتباسه من مقالة وليد الخالدي، "عودة إلى قرار التقسيم ـ ١٩٤٧"، "مجلة الدراسات الفلسطينية"، العدد ٣٣ (شتاء ١٩٩٨)، ص ٣. [المحرر]

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

(القضية الفلسطينية / آفاق المستقبل – ١٠)

العلاقات المصرية ـ الفلسطينية

آفاق القضية ما بين المسار الشعبي والرسمي

تحرير الأعرج و محمد العجاتي

١٥١ صفحة ٨ دولارات